﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: 62 - 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

خِـداعُ الأعـداءِ احـتـمـالٌ قـائـمٌ ومسلكٌ غائمٌ

لمّا بيَّنَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ حكمَ الاستجابةِ للصُّلحِ الذي يجنحُ له الأعداءُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أحدَ أغراضِ الميل للصُّلحِ الَّذي قد يكون في نيّاتهم، فقد يكون طلبُ الصُّلحِ "خديعةً حربيَّةً ليغروا المسلمين بالمصالحةِ، ثمَّ يأخذوهم على غرَّةٍ، أيقظ اللّه رسولَه لهذا الاحتمالِ، فأمرهُ بأن يأخذَ الأعداءَ على ظاهرِ حالهم، ويحملَهم على الصِّدق[1]"، فمناسبةُ الآيةِ للسّابقة مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ احترازيٍّ لما قد يقع في قابلِ الأيّامِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾: يدلُّ أصلُ هذه المادَّة على إخفاءِ شيءٍ، وبه سُمّيَتِ الخزانَةُ مُخْدَعًا، والأخْدَعانِ: عِرْقانِ في اللَّبَّتينِ؛ لأنَّهُما خَفيا، وبَطَنا، ويُجمَعُ على أخادعَ[2]، والخداعُ: "إنزالُ الآخرِ عمّا هو بصددهِ بأمرٍ يبديهِ على خلاف ما يخفيه"[3]، وقد وردَت هذه الكلمةُ خمسَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، واحدةٌ هنا واثنتان في البقرة، واثنتان في النِّساء، غالبُها في سياق الحديثِ عن المنافقين وصفاتهم، وهذا يتلاءمُ مع طبيعة شخصيَّةِ المنافقِ الذي يُخفي خلافَ ما يُظهرُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/61، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/154.
(2) الخليل، العين، ص: 234.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 110.

2) ﴿حَسْبَكَ﴾: مَعْناهُ: كافٍ، وهو صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بمعنى اسْمِ الفاعِلِ، أيْ: حاسِبُكَ، أيْ: كافيكَ، والحَسْبُ: العَدُّ والإحصاء، والحَسَبُ: ما عُدَّ، والحَسَبُ بفتح السّينِ: الشَّرَفُ الثّابتُ في الآباء، رجلٌ كريمُ الحَسَبِ: حسيبٌ، وقَوْمٌ حُسَباءُ، وأمّا حَسْبٌ بسكون السّين؛ فمعناهُ: كما تقولُ: حَسْبُك هذا، أيْ: كَفاكَ، وأحْسَبَني ما أعطاني، أي: كفاني[1].

3) ﴿وَأَلَّفَ﴾: أصلُ مادَّة الإلفِ يدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ"[2]، والإلفُ: اجتماعٌ مع التئام، والمُؤَلَّفُ: ما جُمِعَ من أجزاءٍ مختلفة، ورُتِّب ترتيبًا قُدِّمَ فيهِ ما حقُّهُ أن يُقدَّم، وأُخِّر فيه ما حقُّه أن يُؤخَّر[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تمامُ الثِّقةِ باللهِ تعالى طريقُ المتوكِّلين وسبيلُ المؤمنينَ

تناولتِ الآيتانِ موقفَ المسلمين ممَّن يريدُ الصُّلحَ في الظّاهرِ، ويُبطنُ خلافَه، فوجَّهتِ النَّبيَّ ﷺ بما يجبُ عليه من الثِّقةِ باللّه ﷻ فإن أرادَ أولئكَ خداعَك والمكرَ بك؛ فإنَّ اللّه كافيكهم وكافيك خداعَهم إيّاك؛ لأنَّه متكفِّلٌ بإظهارِ دينك على الأديان، ومتضمِّنٌ أن يجعلَ كلمتَهُ العليا، وكلمةَ أعدائهِ السُّفلى، فهو الذي قوّاك بنصرهِ إيّاك على أعدائهِ وبالمؤمنين، وجمعَ بين قلوبهم من الأوسِ والخزرجِ بعد التَّفرُّقِ والتَّشتُّت، على دينهِ الحقِّ، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداءً، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعًا، ما جمعتَ بين قلوبهم بحيْلِكَ، ولكنَّ اللّه جمعَها على الهُدى، فائتلفتْ، واجتمعتْ تقويةً من اللّه لك وتأييدًا منهُ ومعونةً على

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حسب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 85.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 20.

عدوِّكَ، وإنَّ اللّه الذي ألَّف بين قلوبهم بعد تشتُّتِ كلمتِهم، جعلَهم لك أنصارًا، فعليهِ فتوكَّلْ، وبهِ فثِقْ، فإنَّه حكيمٌ في تدبيرِ خلقهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

العـدوُّ طـالـبُ الـسِّـلـمِ إمّـا خـاضـعٌ صـادقٌ وإمّـا مـــراوِغٌ مخادِعٌ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ عاطفةٌ، عطفتِ الجملةَ على الجملةِ السّابقة: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾، ومعنى العطفِ: تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعنى، ودفعُ ما قد يجولُ في الصُّدورِ، فإنَّ من يجنحُ للسِّلمِ في حالةِ الحربِ؛ فإنَّه أحدُ رجلين: إمّا مريدٌ للسِّلمِ حقيقةً، وإمّا مخادعٌ، فأتى العطفُ على الحالةِ الثّانيةِ استكمالًا لأحوالِ الأعداءِ، ولدفعِ ما يجولُ في صدرِ المؤمنينَ من السُّؤالِ عن المطلوبِ في حالِ حُدوثِ مثلِ هذا الفعلِ.

نكتةُ استعمالِ (إن) دون (إذا):

الـثِّـقـةُ بـاللـهِ أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الانتصارِ على الأعداءِ

صُدِّرَتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بحرفِ الشَّرطِ (إن) الَّذي يُستعمل في الأمر المشكوكِ فيه الَّذي ينبغي ألّا يكونَ، بخلاف (إذا) التي تُستعمل في الأمرِ المُحقَّقِ، وقد تأتي إحداهُما في موضعِ الأخرى أحيانًا لغرضٍ بيانيٍّ خروجًا عن مقتضى الظّاهرِ، وليس خروجًا عن مقتضى الحالِ، وفي مجيئِها هنا دونَ (إذا) نوعٌ من الطَّمأنةِ للمُؤمنين، وبشرى لهم بأنَّ هذا الخداعَ ليس أكيدًا حتميًّا، بل هو في حكمِ الممكنِ؛ لذا وجبَ على المؤمنين الثِّقةُ باللّهِ تعالى بأنَّه ناصرُهم ومؤيِّدُهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ:

تحذيرُ المؤمنينَ مـــن غـــدرِ المُخادعينَ منهجُ المتثبّتينَ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ المضارعِ في جملةِ فعلِ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لاستحضارِ صورةِ هذهِ الخديعةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/3886 - 3888.

وهي صورةُ إظهارِ الرَّغبةِ في المصالحةِ، وإبطانِ الغدرِ والخديعةِ في السِّرِّ، وقد يفيدُ معنى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ ليُفيدَ تحذيرَ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من أن يغترّوا بهم، ويقعوا في خديعتِهم.

إشاراتُ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ

جاء مفعولُ فعْلِ الشَّرطِ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بالمضارعيَّةِ، فلم يقل: (وإن يريدوا خداعَك)؛ إذ دلَّ الفعلُ المضارعُ على استحضارِ الصّورةِ والتَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لتؤدّيَ الأغراضَ الَّتي أدّاها الفعلُ ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾، بالإضافةِ إلى أنَّ صيغةَ المضارع هنا أفادتِ استبعادَ أن يقعَ منهم خداعٌ لا بسببِ أمانتِهم وحسنِ أخلاقِهم، بل لأنَّ اللهَ علِمَ ضعفَهم عن إيقاعِ المخادعةِ بحيثُ يقعُ لهم انتصارٌ وللمؤمنين هزيمةٌ، وهذا من إشاراتِ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ الكريمِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الخداعِ:

إخفاءُ خلافِ المُظْهرِ متوقَّعٌ من أعداءِ الأمَّةِ

ناسبتْ مفردةُ ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ سياقَ الكلامِ، إذ دلَّتِ المفردةُ مُعجميًّا على إخفاءِ شيءٍ، وهو المتلائمُ مع طبيعةِ العداوةِ الَّتي يُكِنُّها الأعداءُ في صدورِهم تجاه المؤمنين عمومًا، وهو المناسبُ لما يُظَنُّ فيهم من إخفاءِ شيءٍ مع إظهارِ الجنوحِ للسِّلمِ والصُّلحِ، فلم يقل: (وإن يريدوا أن يمكروا بكَ) أو (يغدروا)، فإنَّه غيرُ مناسبٍ لهذا السّياقِ.

نكتةُ توجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ ﷺ:

مَنْ يُسيءُ إلى رسولِ اللهِ؛ فهو مسيءٌ لأمَّةِ كلِّها

وُجِّهَ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، فلم يقل: (وإنْ يُريدوا أن يخدعوكم)، وذلكَ ليتناسبَ مع الآيةِ السّابقةِ؛ إذ وُجِّهَ الخطابُ له ﷺ ولبيانِ أنَّ ما يقعُ من الأعداءِ من الخداع والمكر على خيرِ خلقِ اللهِ تعالى فلا يُستبعَدُ منه الأشدُّ والأنكى في حقِّ بقيَّةِ المؤمنين، فإنَّهم لا يُراعون حرمةً ولا أمانةً.

بلاغةُ استعمالِ الفاءِ في جوابِ الشَّرطِ:

اقترنَ جوابُ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ

حُسْنُ الإشاراتِ المقاميَّةِ يُناسبُها براعةُ الإيجازِ الخفيَّةُ

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بالفاءِ الرّابطة بمقدَّرٍ، ولك أن تُقدِّرَهُ: إن يُريدوا خِداعَكَ، ولم يكن لك بدٌّ من قبولِ مصالحتِهم، وخِفْتَ غدرَهم وخيانتَهُم؛ فإنَّ اللّه يكفيكهم، فاحتملتِ الفاءُ هذه المعاني، وحَسُنَ الإيجازُ لما فيهِ تلويحٌ لما يجولُ في النَّفس، مع الحياءِ من إظهارِه، فناسبَ الإضمارُ الإضمارَ، ولاءمَ الإيجازُ المقامَ.

فائدةُ استعمالِ التَّوكيدِ في الخطابِ:

على المؤمنِ الأخذُ بالظّاهرِ وتركُ السَّرائرِ

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ تأكيدَ الجملة بـ(إنَّ) روعيَ فيه المعنى الكنائيُّ؛ لأنَّ معناه الصَّريح ممّا لا يشكُّ فيه أحدٌ[1]، ومعناهُ: أنَّ التَّأكيدَ ليس للنَّبيِّ ﷺ وليس للفئةِ المؤمنةِ المُخاطبة معه بأنَّ اللّه تعالى لن يتخلَّى عنهم، فهم يعرفون هذه الحقيقةَ، بل هو على المعنى المُكنَّى عنهُ، بمعنى: ضرورةُ ألّا يتعاملَ المسلمونَ معهم بحسب ظنِّهم بهم، وأن يقتصروا على ظاهرِ المسألةِ، ويكلوا أمرَهُم إلى اللّه.

فائِدةُ تقديمِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ على لفظِ الجلالةِ:

إشباعُ النُّفوسِ بالطُّمأنينةِ سابقٌ لإسماعِها هيبةَ الألوهيَّةِ

جاء المسندُ إليهِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ وصفًا، وهو بمعنى الكفايةِ، وكان الظّاهرُ أن يكون ذاتًا؛ فلم يقل: (فإنَّ اللّه حسبك)؛ وذلك على اعتبارِ أنَّ الذي يخطرُ بالبالِ بادئَ بَدْءٍ هو طلبُ مَن يَكْفيهِ[2]، فإنَّ النُّفوسَ في مثل هذه المواقفِ تترقَّبُ الوعدَ بالكفايةِ، فلمّا قال: حسبك؛ تشوَّقتِ النُّفوسُ للتَّصريحِ باسْمِ الكافي سبحانه وهذا من التَّراكيبِ الَّتي يصْلُحُ أن يكونَ فيها المسندُ إليه مسندًا والعكس، وهو المسمَّى بالحمل على المواطأةِ.

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

جاءَ جوابُ الشَّرطِ معدولًا من الجملة الفعليَّةِ إلى الجملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لما تُفيدُه من معاني الثَّباتِ والاستقرار وإزالةِ ما في النُّفوس من هواجسَ وظنونٍ، فإنَّ شأنَكم وديدنكم - أيُّها المؤمنونَ - أن تكونَ ثقتُكم بنصر الله وتأييده، وأنَّهُ لن يتخلَّى عنكم أبدًا، فجملةُ ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ دلَّت على تكفُّلِ الله كفايةَ هذا الأمرِ، وفيها كنايةٌ عن عدم معاملةِ المسلمين لهم بناءً على الظَّنِّ، ألّا يتوجَّسوا منهم خيفةً، وأنَّ ذلك لن يضرَّهُم[1].

الثِّقةُ باللهِ أثبتُ مقامًا من هواجسِ الظُّنونِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾؛ وذلك لما يورِّثُهُ هذا اللَّفظُ من بهاءِ الجلالةِ ومهاب الجلال، فإنَّ ذكرَ لفظِ الجلالةِ في كونِه الكافي سبحانه هو أعظمُ أثرًا في المخاطبين، وترويعًا للمعتدين؛ لأنَّ اللهَ الكافي عبدَهُ هو المعذِّبُ عدوَّهُ.

الإشارةُ إلى كفايةِ العبادِ دليلٌ على وعيدِ الأعداءِ

توجيهُ الفصلِ عن الكلامِ السّابقِ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ، فلم يقل: (وهو الذي أيَّدك..)؛ إمّا لأنَّها من قبيلِ شبهِ كمالِ الاتِّصال، فهي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لِمَ نكِلُ أمرَهم إلى الله؟ وعلى هذا التَّقديرِ؛ فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لما تقدَّمها[2]؛ لأنَّها جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّر، أي: لأنَّه هو الذي أيَّدك بالنَّصرِ وبالمؤمنين.

الحملُ على الاستئنافِ البيانيِّ أو التَّفسير

وإمّا أن تكون جملةً مُفَسِّرةً أو مؤكِّدةً لما تقدَّمها، فلم تُعطف عليها لكمالِ اتِّصالها بها، حيث لا يُعطَفُ التّابعُ على المتبوع، فتكون بيانًا لكفايةِ اللهِ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّأييدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تعظيمُ الذّاتِ العليَّةِ بما اتَّصفت بهِ من صفاتِ النُّصرةِ والتَّأييدِ

جاءَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسمًا موصولًا مبهمًا مفيدًا للتَّعظيمِ؛ لأنَّهُ يعودُ على لفظِ الجلالة، وقد شوَّقَ الاسمُ الموصولُ السّامعَ لإزالةِ الإبهامِ بقولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأفادت معانيَ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ لهذه الذّاتِ العليَّةِ، فكأنَّ طريقَ التَّعريفِ بها هو بوصفِها بالتَّأييدِ بالنَّصرِ وبالمؤمنينَ.

فائدةُ التَّعبيرِ بمفردةِ التَّأييدِ:

التَّأييدُ أخصُّ مِنَ التَّقويةِ بالفعلِ والآثارِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ مفردةِ التَّأييد في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهو التَّقويةُ بالإعانةِ على عملٍ، وجُعِلَت هذه التَّقويةُ بالنَّصرِ؛ لأنَّه يقوّي العزيمةَ، ويثبِّتُ رأيَ المنصور، والتَّأييدُ تقويةٌ بالارتكانِ إلى عظيم، فكيف إذا كان المُؤيِّدُ هو الله تعالى؟ فإنَّه يزيدُ من الثِّقةِ والطُّمأنينةِ والقوَّةِ النَّفسيَّةِ والظّاهرة، وهذا من أعظمِ ما يكونُ عليه الاستقواءُ بالله تعالى ولذلك لم يقل: (هو الذي قوّاك بنصرِه).

دلالةُ إضافةِ لفظِ النَّصرِ إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ:

نصرُ اللهِ ليس كأيِّ نصرٍ بل هو نصرٌ خاصٌّ بآثارِه ومعانيه

في إضافة النَّصرِ إلى الضَّمير العائدِ إلى الذّاتِ العليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّه نصرٌ خارقٌ للعادة، وهو النَّصرُ بالملائكةِ والمعجزات[1]، فيما يتعلَّقُ بالنَّبيِّ ﷺ وما يتعلَّق بالصّالحين من المجاهدينَ والعاملينَ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى ففي الإضافةِ معنى الخصوص، فهو نصرٌ خاصٌّ غير معهودٍ إلّا لعبادِ اللهِ الَّذين يرتضيهم لمثلِه، فهو نصرٌ ليس كأيِّ نصرٍ.

غرضُ إعادةِ حرفِ الجرِّ على المعطوفِ:

تقسيمُ أسبابِ النَّصرِ إلى ما هو ظاهرٌ معلومٌ وخفيٌّ مضمونٌ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قولِه: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾، وقد أُعيدَ حرفُ الجرِّ بعد الواوِ؛ لدفعِ توهُّمِ أن يكون معطوفًا على اسمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

الجلالةِ، فيوهمُ معنًى غير مرادٍ، وهو أنَّ اللّه تعالى أيَّدهُ بنصرهِ ونصرِ المؤمنين لَهُ، مع أنَّ المقصودَ أنَّ وجودَ المؤمنين تأييدٌ من اللّه لرسولهِ؛ إذ وفَّقهم لاتِّباعهِ[1]، قال الرّازي: "فإن قيلَ: لمّا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نصرهِ إلى المؤمنينَ حتَّى قالَ: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ قلنا: التَّأييدُ ليس إلّا مِنَ اللّه لكنَّهُ على قسمين: أحدهما: ما يحصلُ من غيرِ واسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، والثّاني ما يحصلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، فالأوَّلُ هو المرادُ من قولهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ والثّاني هو المرادُ من قوله: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]".

فائدةُ العطفِ بين الأفعالِ:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ على قولهِ: ﴿أَيَّدَكَ﴾ في قولهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فيكون المعنى: أيَّدَكَ بنصرهِ وبالمؤمنين، وألَّف بين قُلوبِ الَّذين أيَّدك بهم، فتكون المؤالفةُ مظهرًا من مظاهرِ نصرةِ دينِ اللّهِ تعالى ومن تركَ المؤالفةَ بين المؤمنينَ وحاربها، فإنَّه يكونُ قد تركَ سببًا من أسبابِ التَّأييدِ وحاربَهُ، وهذا دليلٌ عظيمٌ من أدلَّةِ المؤالفةِ بين المسلمين، وأنَّ اجتماعَهم على كلمةٍ واحدةٍ هو طريقُ النَّصرِ والظَّفَرِ.

المؤالفةُ بين المؤمنينَ سبيلُ النَّصْرِ المعنويِّ

بلاغةُ حذفِ المسند إليه:

المسندُ إليه الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ محذوفٌ، ونكتةُ الحذفِ أمران:

الأوَّل: الإيجازُ للعلمِ به، وهذه نكتةٌ لفظيَّةٌ لا تستقلُّ بذاتها.

الآخرُ: ليتحقَّقَ الانشغالُ بفعلِ المؤالفةِ، وليعتني بهِ المؤمنونَ أيَّما عنايةٍ، فيشكروا اللّه عليها.

الانشغالُ بالمؤالفةِ أولويَّةٌ في مواجهةِ الباطلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/155.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿وَأَلَّفَ﴾:

المـؤالـفـةُ جـمـعٌ لـلأفـرادِ ذوي العلاقةِ الواحدةِ لتحقيقِ غرضٍ مرضيٍّ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بمفردةِ المؤالفةِ دونَ غيرِها من الألفاظِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، من مثلِ: جمعَ، وحبَّبَ؛ وذلك أنَّ المؤالفةَ لفظٌ يُرادُ بهِ الجمعُ في الظّاهرِ والباطنِ لتحقيقِ غايةٍ، فالمؤالفةُ هي اجتماعُ الأواصرِ بما يحقِّقُ غايةً مرضيَّةً، وهذا لا يكونُ بمجرَّدِ الحبِّ، أو مطلقِ الجمعِ، فكم من متحابّينَ لا يُحقِّقونَ أغراضًا مقصودةً، فإيثارُ هذا اللَّفظِ لبيانِ أمرٍ مقصودٍ لا يُحقِّقُهُ لفظٌ آخر، والتَّأليفُ بين قُلوبِ المُؤمنينَ منَّةٌ أُخْرَى على الرَّسولِ، إذْ جَعَلَ أتْباعَهُ مُتَحابّينَ، وذلك أعْوَنُ لَهُ على سياسَتِهم، وأرْجَى لاجْتِناءِ النَّفْعِ بهمْ؛ إذْ يَكونونَ على قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، وقد كانَ العَرَبُ يُفَضِّلونَ الجَيْشَ المُؤَلَّفَ من قَبيلَةٍ واحِدَةٍ؛ لأنَّ ذلك أبْعَدُ عَنْ حُصولِ التَّنازُعِ بينهُمْ.

وَهو - أيْضًا - مِنَّةٌ على المُؤْمِنينَ؛ إذْ نَزَعَ مِن قُلوبهمُ الأحْقادَ والإحَنَ الَّتي كانَتْ دَأْبَ النّاسِ في الجاهِليَّةِ، فكانَتْ سَبَبَ التَّقاتُلِ بين القَبائِلِ، بَعْضِها معَ بَعْضٍ، وبين بُطونِ القَبيلَةِ الواحِدَةِ[1].

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿وَأَلَّفَ﴾ إلى القلوبِ:

الـقـلـوبُ هي مناطُ الصَّلاحِ في الأمَّةِ

استعملَ النَّظمُ القلبَ جمعًا مضافًا إلى الضَّميرِ دونَ الاكتفاءِ بالضَّميرِ وحدَهُ، فلم يقل: (وألَّف بينهم)، وذلك لبيانِ أنَّ القلوبَ هي موطنُ المؤالفةِ، فإذا صلُحت؛ فقد ائتلفت، وألَّفت بين جماعةِ المؤمنين، ففيه دلالةٌ على أثرِ صلاحِ القلوبِ في حياةِ الأمَّةِ ونصرتِها على أعدائها؛ فقولُه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوفٌ على المننِ السّابقة، فقد ألَّفَ بين قلوبِهم حتَّى جعلهم أمَّةً واحدةً.

نكتةُ جمعِ القلوبِ:

اختلافُ القلوبِ لا تُزيلُهُ إلّا قدرةُ العزيزِ الحميدِ

لجمعِ القلوبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ نكتةٌ بيانيَّةٌ بديعةٌ، وهي بيانُ اختلافِها وتنوُّعها، في مشاربِها وأصولها وميولها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

وشهواتها، فليس الجمعُ لمجرَّدِ الكثرةِ، بل لبيانِ التَّعدُّدِ، فإنَّ القلوبَ الَّتي جُمعت هي قلوبُ المهاجرين والأنصارِ، والأوسِ والخزرج مع ما كانَ بينهم قبلَ ذلك من العصبيَّةِ والضغينةِ والتَّهالك على الانتقامِ، بحيثُ لا يكادُ يأتلفُ فيهم قلبانِ حتَّى صاروا بتوفيقهِ تعالى كنفسٍ واحدةٍ[1]، وممّا هو معلومٌ أنَّ الاختلافاتِ إذا كثُرت؛ فإنَّها تكونُ أصعبَ منالًا، فكيف إذا تكاثرت، واختلفت، وتعدَّدت؟ وهذا زيادةٌ في الامتنانِ على العبادِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المـــالُ طـريـقٌ لجمعِ المرتزقةِ لا لجمعِ الأمَّةِ

بيَّنَ الحقُّ سبحانه استحالةَ تأليفِ تلك القلوبِ المتنافرةِ في جاهليَّتِها في قولهِ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، وهو "استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَهُ، ومبيِّنٌ لعزَّةِ المطلبِ وصعوبةِ المأخذِ، أي: تناهي التَّعادي فيما بينهم إلى حدٍّ لو أنفقَ منفقٌ في إصلاحِ ذاتِ البيْنِ جميعَ ما في الأرضِ من الأموالِ والذَّخائرِ لم يقدرْ على التَّأليفِ والإصلاح[2]"، فهو اسْتِئْنافٌ ناشِئٌ عَنْ مَساقِ الامْتِنانِ بهذا الائْتِلافِ، فهو بَيانيٌّ، أيْ: لَوْ حاوَلْتَ تَأْلِيفَهُم ببَذْلِ المالِ العَظيمِ؛ ما حَصَلَ التَّأْلُفُ بينهُمْ[3]، كما امتنَّ سبحانه عليهم في قولهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

نكتةُ خطابِ الواحدِ وإرادةِ الجميع:

الأمـــوالُ غـيرُ مؤثِّرةٍ إن كانتِ القلوبُ مبعثرةً

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وإن كان ظاهرُهُ للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه يتناولُ كلَّ واقفٍ عليه؛ لأنَّهُ لا مبالغةَ في انتفاءِ ذلكَ من منفقٍ معيَّنٍ[4]، فهو تحدٍّ ضمنيٌّ قائمٌ إلى قيامِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.

السّاعةِ، فإنَّ الأموالَ مَهْما تكاثرت في أيدي أصحابِها؛ فلن تكونَ مؤثِّرةً إن كانت القلوبُ مبعثَرةً.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(لَوْ) دونَ غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ:

استُعملتْ أداةُ (لَوْ) دون غيرِها من أدوات الشَّرط في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ زيادةً في بيانِ استحالة تحقُّقِ المؤالفةِ بين مَنْ وقعتِ المؤالفةُ بينهم، فلم يقل: (إن أنفقت) أو (إذا أنفقت)، فـ(لَوْ) تدلُّ على عدم الوقوع، فكيف إذا كان جوابُها نفيًا؟ وأفاد نظمُ هذه الجملةِ الشَّرطيَّةِ عقدَ السَّببيَّةِ والمسبَّبيَّةِ بين الجملتين، فـ(لَوْ) تقوم بتقييدِ الشَّرطِ بالزَّمن الماضي دونَ المستقبلِ، وتُفيدُ امتناعَ الجوابِ لامتناعِ فعلِ الشَّرطِ، ولذلك يمكنُ أن يأتيَ بعدها حرفُ استدراكٍ[1]، كما حصلَ هنا.

براعةُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ:

الإنفاقُ والأرضُ علاقةُ الجزءِ بالكلِّ

المفردةُ القرآنيَّةُ متَّسقةٌ مع نظيراتِها في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فذكرُ الأرضِ جاءَ على أتمِّ المناسبةِ، حيثُ إنَّ الإنفاقَ المُشتقَّ من مادَّة (نفق) مأخوذٌ من نافقاءِ اليَرْبوعِ وهو جُحْرٌ من جحرتِه يخرج منه؛ إذا أخذ عليه الجُحْرُ الذي دخلَ فيه[2]، فالعلاقةُ بين إنفاقِ المالِ ونفَقِ الأرضِ: هو نفادُ المالِ المنفقِ في الأرضِ؛ لأنَّهُ يتوارى عنِ الأنظارِ في باطنِ الأرضِ، فكانَ اختيارُ هذه المفردةِ بدلًا من مرادفاتِها مُتَّسقًا مع لفظِ الأرضِ التي تحوي النَّفقَ، والنَّفقُ الذي أُخِذَ منه الإنفاقُ هو جزءُ الكلِّ الَّذي هو الأرضُ.

دلالةُ إيثارِ استعمالِ ﴿مَا﴾:

الاتِّساقُ مطلبُ النَّظمِ، وسرُّ الاختيارِ

آثرَ النَّظمُ الإتيانَ بما الموصوليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بدلًا من الاسمِ الموصولِ الظّاهرِ، حيث أُريدَ بيانُ العمومِ،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/284.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

أي: ما في الأرضِ كلِّها دونَ استثناءٍ، ما ظهرَ منها وما بطنَ، والاتِّساقُ بين الأدوات والمفردات مطلبٌ عظيمٌ في النَّظم القرآنيِّ، لما له من إبرازِ المعاني وتوكيدِ مراميها.

بلاغةُ اسْتِعمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّةِ:

كلمةٌ موجزةٌ في استغراقِ جميعِ أموالِ الأرضِ

سبقَ بيانُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ مع لفظِ الأرضِ، ويزدادُ الأمرُ جمالًا في استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ فلم يقل: (لو أنفقت ما على الأرض)؛ ليشملَ ذلك ما عليها وما فيها، وليتلاءمَ مع مفردةِ الإنفاقِ، فالإنفاقُ المفترضُ يشملُ ما هو ظاهرٌ وما هو باطنٌ، بحيثُ لا يغيبُ شيءٌ ممّا فيها، وهذا دالٌّ على استيعابِ جميعِ أموالِ الأرضِ الظّاهرةِ والباطنةِ، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، ولا يوجدُ في لسانِ أحدٍ ما يشملُ جميعَ أموالِ الأرضِ كهذا البيانِ.

الإشـــارةُ إلى اكتشافِ الأموالِ النَّفطيَّةِ

ولا يبعدُ أن تُشيرَ الآيةُ إلى ما سيكونُ في باطنِ الأرضِ من أموالٍ نفطيَّةٍ باطنيَّةٍ - لاسيَّما - في جزيرةِ العربِ الَّتي كانتِ المؤالفةُ بفضلِ اللهِ تعالى بين قلوبِ أهلِها، ففيها فضيلةٌ للعربِ، حيثُ إنَّ اللهَ تعالى ألَّف بين قلوبهم، ثم أخَّر إخراجَ ما في الأرضِ لتكون لهم إنفاقًا في قادمِ الأيّام، فلمّا تآلفوا أخرجتِ الأرضُ خيراتِها، وما دامتِ المؤالفةُ بين قلوبِهم على قاعدةِ الإسلامِ قائمةً؛ فالخيراتُ - بإذنِ اللهِ - على قاعدةِ الشُّكرِ قائمةٌ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

دلَّ التَّعريفُ على معنى العهدِ، فالمقصودُ بالأرضِ: المعهودةُ كلُّها، لا بعضُها أو أجزاءٌ منها، وهي تشملُ البرَّ والبحرَ وغلافَها الجويَّ الملاصقَ لها.

موقعُ الحالِ من السّابقِ:

جاءتِ الحالُ ﴿جَمِيعًا﴾ مبيِّنةً المقصودَ بالمنفَقِ، ومؤكِّدةً مفهومَ

التَّـأكـيـدُ على استغراقِ جميعِ الأموالِ

العمومِ والاستغراقِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فهي تشمَلُ جميعَ ما في الأرضِ من أموالٍ ينتفعُ بها النّاسُ، ويُقوِّمونها ممّا يخطرُ في الأذهانِ وما لا يخطُر، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، وفي تصويرِ استحالةِ المؤالفةِ بالأموالِ وحدَها.

بلاغةُ البيانِ القرآنيّ في المدحِ الشَّبيهِ بالذَّمِّ:

فـضـلُ الـعـربِ بتقديمِ عبادةِ الـــدَّيّـــانِ على الأموالِ والجنانِ

وفي هذا البيانِ فضلٌ للعربِ الذين آلفتْ بين قلوبِهم كلماتُ القرآنِ، ومواعظُ النَّبيِّ العدنان، فكان لها أعظمُ التَّأثيرِ، ما لم يكن لأموالِ الدُّنيا كلِّها، فإقبالُهم إقبالُ الواثقِ المستوثقِ، الباحثِ عن الحقِّ، المؤمنِ بالحقِّ، فلم يكن إيمانُهم عابرًا للحصولِ على أموالٍ فانية، أو زخارفَ لاهيةٍ، أو شهواتٍ لاغيةٍ، بل كان راسخًا رسوخَ الرَّواسي الشّامخةِ، فكانت هذه الجملةُ مدحًا بما يُشبهُ الذَّمَّ، وامتنانًا يحيطُ به الامتنانُ، لا يفقهُ إشاراتِه إلّا عربيُّ اللِّسانِ آمنَ باللهِ، وكفرَ بما دونَهُ.

بلاغةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

إعـجـازُ الـقـرآنِ الـتَّـأثـيريِّ وجْـهٌ كـــاشـــفٌ عـن عجزِ البشرِ على التَّأثيرِ الحقيقيِّ

جاءت جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ واقعةً موقعَ البيانِ المُفصحِ عن حقيقةِ النَّفي فيها، فإنَّ إنفاقَ ما في الأرضِ كلِّها جميعًا لن يُحقِّقَ المؤالفةَ بين مَنْ آمنَ باللهِ تعالى كما تحقَّقَ ذلك في التَّأثُّرِ بالقرآنِ، فأثرُ القرآنِ أعظمُ أثرًا من إنفاقِ جميعِ أموالِ الأرضِ، وهذا نصٌّ كاشفٌ عن إعجازِ القرآنِ في تأثيرِه على السُّلوكِ الاجتماعيِّ للبشرِ، وهذا أحدُ أوجُهِ الإعجازِ التَّأثيري، ومعنى الكلامِ: بيانُ قوَّةِ أثرِ القرآنِ في النّاسِ، بما لا تستطيعُهُ قوَّةٌ أخرى، فباتَ القرآنُ - باعتبارِه كلامَ اللهِ تعالى - خارقًا للعادةِ البشريَّةِ في تأليفِ القُلوبِ، وهذا البيانُ بيِّنٌ في نفي القدرةِ عن كلِّ أحدٍ على المؤالفةِ بين قلوبِ مَنْ تحقَّقتِ المؤالفةُ بينهم بالقرآنِ.

سرُّ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

اختلافُ الفاعلِ والحالِ إشارةٌ إلى الفرقِ بين المقامين

في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ كان ظاهرُ النَّظمِ أن يكونَ بإضمارِ القلوبِ، فيقولُ: (ما ألَّفت بينها)، لكنَّه عدلَ عن ذلك وأظهرها، وسرُّ ذلك كامنٌ في كونِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ هو اللهُ تعالى فالجملةُ خبرٌ عمّا وقعَ، بينما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فالفاعلُ هو النَّبيُّ ﷺ والجملةُ إخبارٌ عمّا يستحيل أن يقع؛ فلمّا اختلفَ الفاعلُ والحالُ بين الوقوعِ واستحالةِ الوقوعِ حَسُنَ الإظْهارُ للإشارةِ إلى بيانِ الفرقِ بين المقامَيْن.

أغراضُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ:

تأليفُ الملكِ المنّانِ اعتزازٌ للمؤمنِ وامتنانٌ

ذُكِرَ المسندُ إليه - وهو لفظ الجلالةِ - في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ مُظْهَرًا، مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ الإضمارَ، لكنَّه عدلَ عن ذلك لأغراضٍ عدَّةٍ، منها:

الأوَّلُ: تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المُخاطَبين.

الثّاني: تقويةُ الامتنانِ في نفوسِ المخاطبين.

الثّالثُ: المحافظةُ على أثرِ تلك المؤالفةِ العظيمةِ الصّادرةِ عنهُ سبحانه.

الرّابع: الإشارةُ إلى اختلافِ المقامَيْن: مقامِ ذكرِ المؤالفةِ ابتداءً، ومقامِ ذكرِ المؤالفةِ بعد نفي قدرةِ أحدٍ عليها.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ القلوبِ إلى ذكرِ أصحابِها:

ذكرُ نتائجِ الأفعالِ امتنانٌ من صاحبِ الأفعالِ

جاء ذكرُ القلوبِ مظهرًا مرَّتين في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وعدلَ في الجملةِ الاستدراكيَّةِ عن ذكرِها - إضمارًا أو إظهارًا - إلى ذكرِ أصحابِها، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الاستدراكيَّةَ تُخبرُ عن النَّتيجةِ العظيمةِ، وهي التَّأليفُ بين أصحابِ القلوبِ بعد وقوعِها، فالمؤالفةُ بينهم هي في المعيشةِ والزَّواجِ والنَّسبِ والمعاملاتِ الماليَّةِ

ونصرةِ بعضِهم بعضًا، وما يتبعُ ذلك من لوازمِ المؤالفةِ على الحقِّ، فكان ذكرُ القلوبِ كالعلَّةِ للنَّتيجةِ في المؤالفةِ بين أصحابِ القلوبِ.

فائدةُ الاستدراكِ بعد النَّفي:

التَّأليفُ بين القلوبِ منَّةٌ خالصةٌ للهِ ﷻ

أفادَ الاستدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بعد النَّفي بـ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مجموعةً من المعاني، وهي كالآتي:

الأوَّل: القصرُ، حيثُ قصرَ التَّأليفَ بين قلوبِهم على الذّات العليَّةِ، بعد أن نفاهُ عنهم.

الثّاني: أشعرَ النَّظمُ بحرفِ الاستدراكِ بعد النَّفي زيادةً في التَّأكيدِ، حيثُ أثبتَ ذلك في الجملةِ المتقدِّمةِ خبرًا ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، ثمَّ أكَّدَهُ مرَّةً أخرى في الجملةِ الاستدراكيَّة.

الثّالث: أومأ الاستدراكُ إلى نفي القدرةِ على التَّأليفِ بين القلوبِ عن رسولِ الله ﷺ دفعًا لأن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ اللهَ ألَّف بين قلوبِهم بأخلاقِه ﷺ وحسن دعوتِه، فإنَّ أخلاقَ النَّبيِّ ﷺ منَّةٌ من الله تعالى على الأمَّةِ، كما أنَّ التَّأليفَ بين القلوبِ منَّةٌ عليها.

بلاغةُ التَّذييلِ:

تعليلُ خوارقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ بيانٌ قرآنيٌّ ونظمٌ معجزٌ

جاءَت فاصلةُ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، والتَّأكيدُ بها لمُجَرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَرِ باعتبارِ جَعْلِه دَليلًا على بَديعِ صُنْعِ الله تعالى فإنَّ التَّأليفَ بين القُلوبِ ممّا لا تستطيعُه قوى البشرِ، فكانتِ الجملةُ تعليلًا لما حصلَ من تأليفِ اللهِ وحدَه لقلوبِ المؤمنين، فلمّا كانَ هذا التَّكْوينُ صُنْعًا عَجيبًا؛ ذَيَّلَ اللهُ الخَبَرَ عنه بقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وهذا من توحيدِ الأسماءِ والصِّفات، فقد اختيرَ هذان الاسمانِ دونَ غيرِهما، وهما: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، "أي: قادرٌ قاهرٌ يمكنهُ التَّصرُّفُ في القلوب، ويقلبُها من العداوةِ إلى الصَّداقة، ومن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.

النَّفرةِ إلى الرَّغبة، حكيمٌ بفعلِ ما يفعلُهُ على وجهِ الإحكامِ والإتقانِ، أو مطابقًا للمصلحة والصَّواب[1]"، ومن آثارِ حكمتهِ تدبيرُ أمورِهم على وجهٍ أحدثَ فيهم التَّوادَّ والتَّحابَّ، فاجتمعت كلمتُهم، وصاروا جميعًا كنانةَ رسولِ اللّه ﷺ الذّابّينَ عنه بقوسٍ واحدةٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخداعُ والكَيْدُ والغُرورُ والمَكْرُ:

الخداعُ لا يحتاجُ كبيرَ تدبيرٍ وفكرٍ، بخلافِ الكيدِ فهو يحتاجُ ذلك

استعملتِ الآيةُ الأولى لفظةَ الخداعِ، واستعملَ القرآنُ كلماتٍ مقاربةً لها في مواضعَ أُخرى كالكيدِ والمكرِ والغرورِ، وكلُّ لفظةٍ من هذهِ الألفاظِ قد تلتقي مع اللَّفظةِ الأخرى في بعضِ الدِّلالاتِ وتغايرها بدلالاتٍ أخرى تميِّزُها عن غيرِها، فقد جاء استعمالُ كلمةِ الكيدِ في بعض المواضعِ كقولهِ تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: 42]، وقولهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 15 - 17] والكيدُ ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا، وقد يكون ممدوحًا، وإن كان أكثرُ استعمالهِ في المذمومِ[3].

فالفرقُ بين الخَدْعِ والكيد: أنَّ الخَدْعَ هو إظهارُ ما يُنطقُ بخلافِه، أرادَ اجتلابَ نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولا يقتضي أن يكونَ بعد تدبُّرٍ ونظرٍ وفكرٍ ألا ترى أنَّهُ يقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ من جشاءٍ، وهمُّه الإنصافُ، وإن كان ذلك بديهةً من غيرِ فكرٍ ونظرٍ، والكيدُ لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّرٍ وفكرٍ ونظر، ولهذا قال أهلُ العربيَّةِ: الكيدُ التَّدبيرُ على العدوِّ وإرادة إهلاكه، وسمّيت الحيلُ الَّتي يفعلها أصحابُ الحروب بقصد إهلاكِ أعدائهم: مكايدَ؛ لأنَّها تكون بعد تدبُّرٍ ونظرٍ، ويجيءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 335.

الكيدُ بمعنى: الإرادةِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 76] أي: أردنا، ودلَّ على ذلكَ بقولهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: 76]، ويجوزُ أن يقالَ: الكيدُ الحيلةُ التي تقرِّبُ وقوعَ المقصودِ به من المكروه، وهو من قولهم: كادَ يفعلُ كذا، أي: قرُبَ، إلّا أنَّه قيل في هذا: يكادُ، وفي الأولى: يكيد؛ للتَّصرُّفِ في الكلامِ والتَّفرقةِ بين المعنيين.

ويجوز أن يقالَ: إنَّ الفرقَ بين الخَدْعِ والكيدِ: أنَّ الكيدَ اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين قهرًا، تقول: كايدني فلانٌ، أي: ضرَّني قهرًا، والخديعةُ: اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين من غير قهرٍ، بل بأن يريدَ بأنَّهُ ينفعهُ، ومنه الخديعةُ في المعاملةِ، وسمَّى اللّه تعالى قصدَ أصحابِ الفيل في مكَّةَ كيدًا في قولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ [الفيل: 2]، وذلك أنَّهُ كان على وجهِ القهرِ[1].

الـغـرورُ: وهْـمٌ يـوقـع صاحـبَهُ في الـخـطـأ، والـخَـدْعُ: إيهامٌ صادرٌ عن الآخرِ للإيقاعِ في الخطأ

وأمّا الغرورُ، فقدِ استعمل القرآنُ الكريمُ لفظةَ الغرورِ في مثلِ قولهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [آل عمران: 24] والغَرورُ: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[2]، والفرقُ بين الخَدْعِ والغرورِ: أنَّ الغرورَ إيهامٌ يحملُ الإنْسانَ على فعل ما يضرُّهُ مثل أن يرى السَّرابَ، فيحسبهُ ماءً، فيضيِّعُ ماءَهُ، فيهلك عطشًا، وتضييعُ الماءِ فعلٌ أدّاهُ إليهِ غرورُ السَّرابِ إيّاه، وكَذلك غرَّ إبْليسُ آدمَ، ففعلَ آدمُ الأكلَ الضارَّ له، والخَدْعُ: أن يسترَ عنه وجهَ الصَّوابِ، فيوقعَهُ في مَكْروهٍ، وأصلهُ من قَوْلهم: خدعَ الضَّبُّ؛ إذا توارى في جُحْرِه، وخدعَهُ في الشِّراء أو البيعِ؛ إذا أظهر لَهُ خلافَ ما أبطنَ، فضرَّهُ في مالهِ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288 - 289.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.
(3) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 289.

وأمّا المكرُ؛ فهو صرفُ الآخرِ عمّا يقصدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: محمودٌ ومذمومٌ[1]، وقد استُعمِلَ في القرآنِ الكريمِ كثيرًا من مثل قولِه تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: 30]، والمكرُ مثلُ الكيدِ في أنَّهُ لا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفكرٍ إلا أنَّ الكيدَ أقوى منهُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 356.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 290.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»